بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾

(الأنفال ٦٠)

الباب التاسع

الدفاع الشعبى والعسكرى

ودوره فى إعـــداد القــوى وربــاط الخيــل

الفصل الأول

فكره عامة عن الدفاع الشعبى والعسكرى والمقاومة الشعبية

إن طبيعة الحرب الحديثة التى تطورت ، بحيث اصبحت صداماً مسلحاً تختفى فيه الحدود بين جبهة القتال والعمق الجغرافى للبلاد ، وبين الشعب وقواته المسلحة . وإن الشعوب النامية التى تعجز ميزانياتها ودخلها الوطنى عن بناء قواتها المسلحة القادرة على درء أى عدوان تتعرض له البلاد ، هو أمر يفرض عليها استغلال قوتها البشرية وإمكانيات شعبها وتضاريس أراضيها وإعداد البلاد للنضال . والقتال المستمر الطويل يهدف لاستنزاف متواصل لقوات العدو الغازى ، وتوجيه ضربات متتالية فى الأرض المحتلة . . فى المواجهة ومن المؤخرة ، وعلى الاجناب ضد خطوط مواصلات العدو وأجنابه ، والإغارات القوية ضد مناطق القيادة مع تهيئة أنسب الظروف الملائمة للقيام بضربة مضادة ، تقوم بها القوات المسلحة النظامية إلى جانب القوات الشعبية لطرد العدو من البلاد .

ويجب أن تعترف الدول النامية بأهمية وضرورة تنظيم قوات الدفاع الشعبى بها ، بإعتبارها القوات المتيسرة دائماً لمقاومة العدوان المسلح ، يكون فيها لكل مواطن ومنظمة اجتماعية وسياسية وتعليمية وصناعية دوره الإيجابى المحددّ فى خطة عامة فى القتال المسلح المنتظر ، وأن تقوم أجهزة الدولة بتعبئة كافة إمكانياتها لتحقيق أمن وسلامة واستقلال أراضيها إلى جانب قواتها المسلحة المتيسرة لديها . وتضع الدولة قانوناً خاصاً لأمنها القومى ، يتضمن فيه تخطيط وتنظيم وأسلوب الدفاع الشعبى والعسكرى والمهام فى حالة السلم والحرب .

وكانت فكرة المقاومة الشعبية والدفاع الشعبى قد بدأت فى مصر مع ثورة ٢٣ يوليو ضد الاستعمار البريطانى ، خاصة فى منطقة قناة السويس ، رغم أن المقاومة الشعبية فى مصر

قديمة قدم تاريخ مصر ولـها تاريخها المجيد . ولكن فى العصر الحـديث كان لابد من إيجاد تنظيم لها ، وبـدأت أهميـة تنظيـمها تظهر فـى عدوان ١٩٥٦ ، ثـم لما حـدث زلـزال ٥ يونيو ١٩٦٧ ودمـر جبالاً شامخة وهـوى بحصون منـيعة ، ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى بمصر كانت واسعة فقد أبـقت على قواعد البيت قائمة راسخة ، تنتـظر يد البنَّاء الماهر لرفع أعمدة القوة والصمود .

وبعـد معركة رأس الـعش فى أول يولـيو ١٩٦٧ والتحدى الجـوى المصرى لطـائرات الاستطلاع الإسرائيلـى ، وإصابتها يوم ١٤ يولـيو وبعد إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات يوم ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ ، بدأت إسـرائيل فى الانتقام ، فقـامت بإغارات العمق المصـرى قام بها الكومانـدوز الإسرائيلـى بأعمـال تخريبية ضد بعض الأهداف الاستراتـيجية فى عمق مصر ؛ بهدف إزعاج القيادة المصرية وإجبارها على إعادة توزيـع قواتها المسلحة ، وتخفيف جبهة قناة السويس .

ولما حدثت الإغارة الإسرائـيلية على رأس غارب ، واستولت إسرائيـل على محطة ردار ب ١٢ روسية الصنع ، ونقلتها جوا إلى إسرائيل يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ . . إجتمع الرئيس جمال عبـد الناصر بالقادة لـبحث هذا الموضوع ، وبحث سـبل إعداد قوى الشـعب الـعاملة والدفاع الشعبى والعسكرى للمشاركة فى تأمين الأهداف الحيوية .

وأصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارات جمهوريـة بشأن تنظيم الدفاع الشعبى وإنشاء قيـادة الدفاع الشعـبى والعسكـرى لتأمين الأهداف الحيويـة بجمهـورية مصر العربية ، وحدد القرار الجـمهورى واجبات هذه الـقيادة ، وكذا واجبات نـواب القائد فى المحافـظات ، وكذا واجبات مـديـر الأمـن بـالنسبـة لتأمين الأهداف ، وواجبـات المسـتشـار العسكـرى بالمحافظات والأحياء . . . إلخ .

وبدأت عجلة الدفاع الشعبى والعسكرى والتربية العسكرية فى المدارس والمعاهد والكليات تسير ، وفق منهج مخطط ومدروس على أساس ان الضـمير الوطنى هو المصدر الرئيسى لقوة الدفـاع الشعبى والـعسكـرى ، ويجـب تنميتـه بالترديـد المتواصل فـى كـل مناسـبة بالأمجـاد والانتصارات الوطنية ، التى حققهـا الشعـب وقواته المسلحة ضد الغزاة على مدى تاريخ البلاد .

الفصل الثانى

قصة المقاومة الشعبية فى مصر

على مر العصور

مقدمة

ليس يعيب الأوطان أن تكون مطمعاً للغزاة والمعتدين ، فتلك شهادة لها بالتميّز والأهمية ، وإنما يعيب الأوطان أن تستكين للغاصب وتخنع للهزيمة التى يلحقها بها ، وهو ما رفضه شعب مصر على مدى تاريخه الطويل ، إذ وقف كالطود الشامخ يرد البغاة ويتعقب الغزاة ، حتى يطردهم خارج الديار ويطهّر تراب مصر من أدران الاحتلال .

والواقع . . أن الطابع المميِّز لشعب مصر على مر العصور ، هو عنف مقاومته للاحتلال الأجنبى ، منذ أن تعرَّض لأول مرة فى تاريخه لغزوة الهكسوس فى القرن السادس عشر قبل الميلاد فقام الشعب تحت قيادة زعيمه سقنن رع يقاتل العدو حتى سقط مضرجاً بدمائه فى أرض المعركة فهبت زوجه تيتى شرى ، التى كان قد اختارها من بنات الشعب تحمل راية الجهاد وتلهب المقاومة الشعبية ، حتى قضى حفيدها أحمس الأول على المحتلين وتعقب فلولهم خارج مصر .

ويمر ٣٥ قرناً من الزمان مشحونة بالكفاح الشعبى والبذل والفداء فى سبيل الوطن المفدى ، حتى وقعت ملحمة السويس يومى ٢٣ و ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ ، التى ضربت فيها المقاومة الشعبية لأهل المدينة أروع أمثلة الصمود والشجاعة فى وجه العدو ، الذى فشل فى اجتياح مدينتهم رغم ما أعدَّه لها من قوات ومدافع ودبابات وطائرات .

وبين هذين التاريخين يحفل سجل مصر بعديد من أعمال المقاومة الشعبية الباسلة ، التى تبرز للعملاء أن هذا الشعب الأبى لا ينام على الضيم ، ولا يبخل بالدم والروح للذود عن حياض الوطن ، وإليك بعض المقتطفات من أمجادها خلال القرنين الماضيين :

ثورة المنصورة على حملة نابليون :

دهمت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت مصر فى مغرب القرن الثامن عشر ، فأخذتها على غرَّة دون مقدمات أو مبررات لهذا العدوان المفاجئ ، الذى أثار غضب الشعب وهز مشاعره لما لمسه من اختلاف كبير بينه وبين الفرنسيين فى العقيدة الدينية وفى التقاليد والعادات ، بما أشعل روح المقاومة في وجدانه .

وكلما نجح بونابرت فى اخضاع إقليم . . أوقدت المقاومة الشعبية نار الكفاح فى عدة أقاليم أخرى ، وقد كانت منطقة شرق الدلتا وعاصمتها المنصورة أبرز تلك البقاع التى استهلَّت الكفاح المسلح تحت زعامة أحد أبناء مصر البررة ، الشيخ حسن طوبار .

فعلى الرغم من تفوق السلاح الفرنسى وشدة فتكه ، وما عمد إليه بونابرت من أساليب إجرامية لسحق تلك المقاومة ، وفرض الغرامات الفادحة على الأهالى لإخضاعهم . . فقد نجح الشيخ حسن طوبار فى توحيد الصفوف وجمع الكلمة فى طول الدلتا وعرضها . وكانت صفات الزعامة التى اكتملت فيه هى محور التفاف المناضلين حوله ، والالتزام بأوامره .

ولم يكن يغيب عن بونابرت ما لشرق الدلتا من أهمية بالغة بالنسبة لخطته فى الشام ، الذى التجأ إليه إبراهيم بك حاكم مصر بصحبة نفر من اتباعه ومئات من المناضلين ، المصريين الذين رفضوا الخضوع للمحتل الفرنسى .

وحتى يحكم قبضته على الدقهلية . . أرسل بونابرت الجنرال فيال على رأس حملة تمكنت من الاستيلاء على المنصورة فى مطلع أغسطس ١٧٩٨ ، وبعد أن ترك بها حامية لتأمين البلدة ، واصل زحفه نحو عزبة البرج ، فما كاد يغادر المدينة حتى انقض أهل المنصورة على تلك الحامية فأبادوها عن بكرة أبيها ، عدا ثلاثة من الجند نقلوا خبر الهزيمة إلى بونابرت*الذى بادر بتعيين الجنرال دوجا حاكماً للإقليم ، وزوده بتجريدة أخرى وصلت إليه يوم ١٨ أغسطس مزوَّدة بتعليمات قاسية بالانتقام من الأهالى وفرض الغرامات الباهظة على أعيانها .

وظلَّت المقاومة الشعبية تقاوم التعسف الفرنسى بصلابة ، وتمتنع عن دفع الغرامات وتتمرَّد على أوامر الحاكم الفرنسى ، فانتشرت نار الثورة فى كل الدلتا وساعدها فيضان النيل الذى أغرق الطرق والجسور فتوقف زحف جيوش الفرنسيين إلى حين .

وبمجرد أن غيض الماء عـن الطرقات استأنف الجنرالان دوجا ومـورا الزحف على قرى الدقهلية والقليوبية والمنوفية . . إلاّ أن المقاومة الـشعبية فى زفتى وميت غمر وسنباط ردتهما مهزومين .

ثم جاءت المحاولة الثالثـة لإخضاع تلك الأقاليم المستعصية . . فـتحرك الجنرال داماس صوب بحيرة المنـزلة ، بينما انقض الجنـرال دستانج على المنصورة وما حولـها . وباقتراب الجيوش من تلك المناطق هبت المقاومة الشعبية بقيادة الشيخ طوبار للدفاع عن بلادهم .

وقرب قرية الجماليـة على فرع دمياط تعثَّر الأسطول الذى يحمـل جنود داماس فى بحر أشمون ، وغرزت سفنه فى القاع فانهال عليها الأهالى بنيران البنادق وقذائف الحجارة ، ولما نزل بعض الجنود إلى البر اشتبكوا معهم فـى قتال متلاحم استمر أربع ساعات بلا انقطاع ، فاضطر داماس وجـنوده إلى الإنسحاب بعد أن أضرموا الـنار فى بيوت قرية الجماليـة تعبيراً على حنقهم وسخطهم لما انزلته المقاومة الشعبية من هزيمة بصفوفهم .

عندئذ أيقن بونابرت أنه يواجه مقاومة عنـيدة جيدة التنظيم ، وذات بأس شديد ، فعمد إلى الحيـلة حيث أرسل يـستدرج حسن طـوبار لمقابلـته واعداً إيَّاه بمعسـول الكلام ، إلاّ أن الشيخ كان أكثر حنكـــة فاحتج بالفظائع التى ارتكبها الفـرنسيون بحق الأهالى ، وإحراق بيوت الفلاحين ، واتخذ من ذلك ذريعة لرفض طلب بونابرت .

وراح الشيخ طوبار ينسِّق جهوده مع إبراهيم بك واتباعه فى الشام ، كما حشد أسطولاً ضخمًا من المراكب فى بحيرة المنزلة وشرع فى مهاجـمة الفرنسيين فى دمياط وما حولها حتى أجلاهم عنها .

ولم تعد الحـملة الفرنسـية بعد أن سيطرت المـقاومة الشعبيـة على أقاليم شـرق الدلتا تتعرَّض لتلك البلاد ، حيث أرخت قبضتها عليهـا وتركتها للمقاومة الشعبية ، التى نجحت فى تحقيق الاستقلال لهذا الاقليم الذى دوَّخ جنرالات بونابرت .

ثورة القاهرة الأولى :

وبينما كانت المـقاومة الشعبية تتصدى للـجيوش الفرنسية فى الدلتا عـلى نحو ما جـاء آنفاً . . كان سـكان القاهرة يتميزون غيـظاً مما عمد إليه بونابـرت يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ من فرض الغرامات الفادحة عليهم ، وقيام جنوده بأعمال السلب والنهب ومصادرة البيوت وطرد

سكانها فى العراء ، وهدم بعض المساجد والأبنية ، ومنها قصر البطل صلاح الدين الأيوبى بحجة إحكام السيطرة على المدينة .

وانطلقت بوادر الثورة الأولى مختلطة بالأذان من فوق المنابر حتى بلغ هياج الشعب ذروته ، وتصدرت جماعة من شيوخ الأزهر الشريف تنظيم الصفوف وتدبير الأسلحة وعلى رأسهم عمر مكرم نقيب الأشراف .

وفى صباح الأحد ٢١ اكتوبر ١٧٩٨ انفجر بركان الثورة الأولى ، فتجمع الناس فى رواق الأزهر استعداداً للخروج على سلطة الاحتلال ، إلاّ أن الخبر وصل إلى بونابرت فأرسل الجنرال ديبوى حاكم القاهرة ليدهم الثوار قبل أن يستفحل أمرهم ، فدخل الأزهر بفرسانه وراح يطلق نيرانه على من فيه .

وتشابك الجمع وتصاعدت حدة القتال حتى قذف بعض المناضلين ديبوى برماحهم فقضوا عليه وعلى ياوره العسكرى النقيب موارى وبعض الجنود ، ثم استولى الثوار على أبواب النصر والفتوح والشعرية وزويلة ، وامتلكوا زمام بعض الأحياء التى أقاموا فيها المتاريس والاستحكامات القوّية .

وعينَّ بونابرت الجنرال جونو لقيادة الجنود فى الأزبكية ، فنصب المدافع فى الطرقات بينما قام الجنرال بون الذى خلف ديبوى باحتلال المرتفعات المحيطة بالقاهرة . وراح الجنرال مارتان يصب حمم مدافعه على أحياء القاهرة والجامع الأزهر فخرجت له قوة من باب الفتوح لمهاجمة تلك المدافع ، كما صعد آخرون على أسطح البيوت والجوامع لضرب القلعة ببنادقهم ، بينما زحف بعض الثوار على الأزبكية لمهاجمة الجند المتمركزين بها .

وظلت المقاومة الشعبية مشتعلة حتى المساء ، وسقط خلال هذا اليوم المجيد كثير من الشهداء كما قتل عدد آخر من الفرنسيين ، منهم المقدم سلوسكى ياور بونابرت .

ثورة القاهرة الثانية :

ولم يكد أفراد المقاومة الشعبية يضمدون جراح ثورتهم الأولى ، حتى هبوا بصورة أشد وأقوى لاقتلاع قواعد الاحتلال الفرنسى فى القاهرة . وتضافرت جهود الأهالى وتراصت صفوفهم فوق الأسوار ، وعلى أبواب الأحياء حتى صارت العاصمة كلها مسرحاً للقتال .

وواكب تلك الثورة الشعبية وصول الأنباء بزحف الجيش التركى على مصر من ناحية الشام ، بالإضافة إلى أسطول بحرى يشق مياه البحر المتوسط فى اتجاه ساحل مصر الشمالى فقوى ذلك من عزيمة الثوار ، وزادت مناوشتهم للجنود الفرنسيين فى حدةً .

وخرج الجنرال كليبر الذى خلف بونابرت فى قيادة الحملة الفرنسية على مصر لملاقاة هذا الجيش ، فأوقع به الهزيمة فى ضواحى عين شمس ، ثم تحوَّل إلى الثوار الذى قادهم عمر مكرم وانضم إليهم أهل بولاق بقيادة الحاج مصطفى البشتيلى ، فأجتاحوا مخازن المير والذخيرة الفرنسية وقضوا على حراسها .

ثم إتجه الجمع إلى معاقل الفرنسيين فى قلعة قنطرة الليمون لاحتلالها ، إلاَّ أن مدافع القلعة أمطرتهم بنيرانها فتراجعوا إلى باب الحديد حيث واصلوا القتال حتى هبط الظلام .

وانتشرت الثورة فى بقية أحياء القاهرة ، حيث احتشد زهاء ٥٠ الفاً من الأهالى فى الدروب والطرقات ، فلما انبلج الفجر اتجهوا إلى الأزبكية حيث قيادة كليبر ، فاحتلوا أسطح المنازل المجاورة لها وراحوا يمطرونها بالسهام والحجارة .

وقبيل الظهر . . التحم الفريقان فى معركة ضارية تفنَّن الثوار خلالها فى ابتكار الأسلحة ، وقفلوا أبواب القاهرة ليمنعوا الإمدادات الفرنسية عن الدخول ، كما أقاموا المتاريس عند قصر العينى وقناطر السباع والشيخ ريحان والناصرية والمدابغ وباب النصر وباب الحديد والرويعى والسويقة ، فارتفعت بعض تلك المتاريس لأكثر من أربعة أمتار ، والثوار يتحصنون خلفها .

ونجحت جماعة من الأهالى فى عمل مصنع للبارود فى بيت الخرنفش ، وورشة لإصلاح الاسلحة ، وتجلَّت روح الفداء على أروع صورها واستمر الكفاح ٣٧ يوماً مجيداً اضطر الجنرال كليبر فى نهايتها إلى أن يدعو العلماء للتفاهم على شروط الصلح .

ورفض الثوار هذا العرض فسلَّط عليهم كليبر ، فجر يوم ١٥ ابريل ١٧٩٩ ، جنوده بقيادة الجنرال فريان فتمكن بعد قتال متلاحم يداً بيد أن يتسلل إلى بعض الأزقة ، حيث أمطرهم سكانها بالنيران والحجارة والماء المغلى حتى أجبروهم على الانسحاب .

واستمرت مدافع القلعة فى ضرب القاهرة بالقنابل ، بينما جنود كليبر يحاولون احتلال بولاق . فلما باءت تلك المحاولة بالفشل ، بعد أن تحمَّلت خسائر كبيرة . . عاود كليبر عرض الصلح ، إلا أن الشهيد سليمان الحلبى باغته فى حديقة منزله بالأزبكية فقضى عليه

وتولى الجنرال عبد الله مينو مكانه ، فقام بتدمير أحياء الحسينية وبركة الفيل وباب الشعرية للثأر لكليبر .

وفى تلك الأثناء . . اشتد ضغط الإنجليز لإخراج الحملة الفرنسية من مصر بالتعاون مع الباب العالى ، وأرسلوا قواتهم البرية والبحرية لتطويق الجيش الفرنسى ، وعاونتهم قوى النضال الشعبى من الداخل فلم يجد مينو بدًا من الجلاء والعودة بجنوده إلى فرنسا .

القرية التى هزمت جيشاً:

(حملة الجنرال البريطانى فريزر على رشيد)

زحف الجنرال فريزر يوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ على رشيد بنحو ٢٠٠٠ جندى ، فلما اقترب من القرية قام المناضل حسن كريت بتنظيم الدفاع الشعبى عنها ، كما بادر بطلب العون من عمر مكرم بالقاهرة الذى أمده بالمتطوعين والأسلحة .

وفى صباح ٣١ مارس أخذت القوات البريطانية تتأهب لاحتلال القرية ، فأمر حسن كريت الأهالى بالاعتصام فى المنازل والتحصُّن داخلها ، كما أمر كافة السفن الراسية فى النيل بالإقلاع إلى ضفته الشرقية حتى لا ينسحب أحد من القرية مهما اشتد القتال ، وأكد على الجميع ضرورة الدفاع عن رشيد حتى أخر قطرة دم .

وبدت القرية لجنود الحملة البريطانية وكأنها بلدة أشباح ، حيث لا حس ولا حركة ، فظنوا أن أهلها قد هجروها طلباً للسلامة ، واندفعوا بكل عجلة يجوسون طرقاتها طلباً للغنيمة فلم يشعروا إلاّ ونار جهنم قد فتحت عليهن ، إذ إنهالت عليهم الحجارة والزيوت المغلية وطلقات الرصاص من أسطح المنازل ونوافذها فدب الفزع فى قلوب الإنجليز ، وسقط منهم عشرات القتالى فى الطرقات ومنهم الجنرال ويكوب قائد التجريدة وكثير من ضباطه ، بينما لاذ الباقون بالفرار .

وانتهت الملحمة بانتصار قوات المقاومة الشعبية وارتداد الانجليز عن رشيد ، بعد أن فقدوا ١٧٠ قتيل و ٢٥٠ جريح و ١٢٠ اسير . ويصف الجبرتى مؤرخ تلك الحقبة من تاريخ مصر هذه الحملة الفاشلة بقوله :

« وعندما وصل الجنود الإنجليز إلى البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية ، فسقط أكثرهم قتلى وجرحى ، والقى الأحياء ما بأيديهم من أسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفت اليهم حسن

كريت وقبض على ١٢٠ أسيراً بينما هربت طائفة من الإنجليز إلى ناحية « أبو قير » . ووصلت رؤوس القتلى إلى القاهرة صباح الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ هجرية ، ومعهم ١٢٠ أسيراً ، فدخلوا من باب النصر وشقوا طريقهم وسط المدينة ومنهم ضابط كبير وآخر متقدم فى السن ، وهما راكبان حمارين والبقية تمشى حولهما فى ذلة وهوان وضربت القلعة فشنكا (طلقات بدون رصاص) وجبه خانه (قنابل مدافع) » .

وما كادت أنباء انتصار المقاومة الشعبية على جيش فريزر فى رشيد تصل أسماع أهل مصر ، حتى استنفر زعماؤهم همم الشعب وقى مقدمتهم عمر مكرم فسارع الأهالى إلى التطوع وحفر الخنادق وإقامة المتاريس لصد الانجليز عن العاصمة ، وتجلّت الروح الوطنية فى أبهى صورها .

شعب بور سعيد يقاوم الغزو الانجلوفرنسى :

بعد أن دكت الطائرات الأنجلوفرنسية مدينة بورسعيد بقنابلها ، خلال الفترة من ٣١ اكتوبر إلى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ ، توطئة لغزوها من جهة البحر بأسطول تجاوز عدد سفنه خمس حاملات طائرات و٨ طرآد و١٦ مدمرة و١٥ فرقاطة و١٤ كاسحة ألغام و١٩ سفينة حاملة جنود ، نزل الجنود البريطانيون والفرنسيون على الساحل ، حيث دار قتال عنيف مع القوات المصرية القليلة المكلفة بالدفاع عن المدينة ، والتى تولى العميد أركان حرب صلاح الدين صادق الموجى مسؤوليتها ، فأبدى من ضروب الشجاعة ما شهد له به عدوه الجنرال ستوكويل .

وبعد قتال عنيف داخل مدينتى بورسعيد وبور فؤاد واستخدام قوات الاقتحام الجوى الرأسى للسيطرة على المناطق الحيوية بهما ، وذلك للمرة الأولى فى تاريخ الحروب ، تمكنت القوات الغازية من احتلال المدينتين ، قبل أن تصدر الحكومة البريطانية أوامرها بوقف إطلاق النار استجابة للضغط العالمى ، وذلك فى فجر يوم ٧ نوفمبر .

وللتو . . تولت المقاومة الشعبية المسئولية فبدأت باستطلاع مواقع العدو والحصول على أكبر قدر من المعلومات عنه ، مع تحديد نظم الحراسة والداوريات ، التى فرضتها قيادة الغزو لتأمين رأس الشاطئ المحتل .

وبدخول عناصر من الصاعقة إلى بورسعيد يوم ٢١ نوفمبر . . نشطت قوات الدفاع الشعبى فى المدينة ، وبدأت فى مهاجمة القوات الغازية اعتباراً من يوم ١٥ ديسمبر عندما

أغارت على ملجأ دبابات بريطانية قرب حى المناخ تحت ستر الظلام ، وتمكنت من تدمير خمس دبابات وعدة عربات مدرعة مستخدمة فى ذلك القواذف الصاروخية والقنابل اليدوية .

وصاحب هذا الهجوم مناوشات أخرى متفرقة فى بعض الأحياء أوقعت خسائر بالعدو ، بلغت ٢٥ قتيلاً مقابل مناضل واحد ، فجر فى نفسه قنبلة يدوية قبل أن تطبق عليه قوات العدو .

وانقسمت المقاومة الشعبية إلى مجموعات ، اختص بعضها بقتال داوريات العدو بينما اختص البعض الآخر بمهاجمة ونسف الدبابات والسيارات المصفحة ، الأمر الذى أوقع بقوات العدو خسائر كثيرة وأربك قيادتها وشتّت جهودها وأرخى قبضة يدها على المدينة .

وفى يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ أتم انسحابه من رأس الشاطئ ببورسعيد ، فتوقفت أعمال المقاومة الشعبية ، بعد أن أدت دورًا بارزًا ضد قوات العدوان ، جعل احتلاله للمدينة باهظ التكلفة فى دفع بعض قادة الغزو إلى وصف هذا الاحتلال « بالأيام السوداء فى بورسعيد » .

الفصل الثالث

قصة مدينتين
فى حرب رمضان المجيـــد

موكب الرئيس
السادات
داخل مدينة
السويس الباسلة

الرئيس السادات
بين جماهير
مدن القناة

لماذا سقطت القنطره وصمدت السويس ؟)

الروح المعنوية ، أى العامل الإنسانى ، هى المبدأ العاشر البالغ الأهمية من مبادئ الحرب . (فيلد مارشال برنارد لومونتجمرى أوف علمين)

مقدمة :

فى أعقاب إحدى الندوات التى عقدتها مراكز الدراسات السياسية والعسكرية لحرب رمضان المجيد ، سأل واحد من الحضور عن سبب سقوط مدينة القنطرة أمام الهجمة الأولى للفرقة ١٨ المشاة بقيادة العميد الركن فؤاد عزيز غالى ، بينما صمدت مدينة السويس فى وجه الهجمات المتكررة للفرقة ١٦٢ المدرعة بقيادة اللواء أبراهام آدان ، وذلك إبان الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة .

وعاد للذاكرة حديث ، كان قد دار بينى وبين الجنرال الفرنسى الشهير أندريه بوفر قبيل وفاته المفاجئة عن عجائب المعارك ، التى تنتهى بفوز طرف لم يكن يتوقع له أحد بالنجاح ، إذ كان خصمه الأكثر نفيراً والأفضل كيفاً . ولم نجد لذلك سبباً إلاّ العامل الإنسانى الذى لا يلقى غالباً ما هو أهل له من الاهتمام ، ربما لعدم توفُّر المعيار الدقيق لقياسه ، بينما يشكِّل ركيزة النصر الأولى فى أى صراع مسلَّح منذ فجر التاريخ .

وأذكر أننا كنا نستعرض عشرات المعارك التى تشهد على ذلك ، ومنها غزوة حنين فى العاشر من شوّال سنة ٨ هجرية (ربيع عام ٦٣٠ ميلادية) ، عندما خرج سيد المرسلين محمد ﷺ فى اثنى عشر ألف مجاهد لغزو ثقيف ومن التف حولها من القبائل ، فلم يكد هذا الجيش العرمرم يتحرك عند الفجر عبر وادى حنين الوعر البالغ الضيق ، حتى باغتهم العدو من جميع الجهات ، بعد أن كانت قبيلة هوازن قد كمنت لهم فى شعاب الوادى ، وقد كانوا رماة نبل ومقارعى سيوف من الطراز الأول .

وبقدر ما كانت المفاجأة مذهلة . . كان الارتباك فى صفوف المسلمين شديداً إذ تراجعت غالبيتهم لا تلوى على شئ ، حتى قال قائل ممن لم يدخل الإيمان إلى قلبه « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » .

وكان الرسول ﷺ على بغلته الشهباء فى مؤخرة الجيش ، فلما رآه ينهار ويتقهقر ، انحاز إلى جهة اليمين حيث ثبت فوق منحدر الجبل ، وحوله الصفوف من الصحابة وهو يقول : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

ثم أخذ عمه العباس رضى الله عنه ينادى بصوته الجهورى . . « يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة » حتى رجع المسلمون ، واستأنفوا الهجوم الذى انتهى بهزيمة هوازن التى فرّت من أرض المعركة ، بينما انسحبت ثقيف داخل الطائف وأغلقت عليها أبوابها .

وهكذا جاء النصر بعد الهزيمة بفضل ثبات النبى ﷺ والنخبة الشجاعة من صحابته الميامين رضوان الله عليهم ، فكان العامل الإنسانى هو المنقذ الوحيد من الفشل الأكبر ، فهو وحده الذى حوّل الهزيمة إلى نصر ، ولا شىء غيره ، وهو نفسه أيضًا - والقياس مع الفارق - الذى حقق النصر للمقاتلين المصريين فى الاستيلاء على بلدة القنطرة ، وأنزل الهزيمة بالمقاتلين الإسرائيلين أمام مدينة السويس .

أولاً لماذا انتصر المصريون فى معركة القنطرة ؟

القنطرة هى ثانى مدن سيناء من حيث الأهمية والحجم ، وهى الهدف الاستراتيجى المهم ، والركيزة الأساسية للسيطرة على المحور الشمالى ، الذى يمتد بحذاء البحر المتوسط مارًا بالعريش ورفح إلى قلب إسرائيل . وقد شكّل هذا المحور اتجاه المجهود الرئيسى لعدوان خريف ١٩٥٦ ثم لعدوان صيف ١٩٦٧ ، كما أن المدينة تعتبر امتدادًا لأختها التوأم على الضفة الغربية لقناة السويس ، إذ تقطنها نفس العائلات التى ترتبط مصالح كل منهما بالأخرى بالمصاهرة وأسباب العيش .

وكان سقوط مدينة القنطرة شرق فى نهاية الجولة الثالثة إهمالاً جسيماً وخطأً استراتيجياً لا يغتفر ، إذ كان يسهل الدفاع عنها على نحو ما صمدت مدينة بور فؤاد التى تقع على مسافة ٤٠ كيلو مترًا إلى الشمال منها . وكم كان يحز فى نفس الجنود المتمركزين على الضفة الغربية للقناة وهم يشاهدون القنطرة شرق وهى ترزح تحت الاحتلال وينتظرون ساعة تحريرها بكل الأمل والشوق والتصميم .

ولم تكن القيادة الإسرائيلية تجهل قيمة القنطرة شرق ، ولذلك خصّتها بدفاع حصين داخل خط بارليف ، وبسلسلة من الحصون المنيعة على امتداد مواجهة المدينة ، وعلى الضفة الشرقية للقناة مباشرة . كما قامت بتأمين كافة الطرق والمحاور المؤدية إليها بحصون أخرى

فى العمق لوقايتها من الحصار . وبهذا اطمأنت القيادة الإسرائيلية إلى تعذُّر الاقتراب من القنطرة شرق بالمواجهة ، مع استحالة الالتفاف على أحد أجنابها أو تطويقها من العمق ، لتظل شوكة فى جنب أية قوات مصرية قد تنجح فى عبور القناة ، إلى أن يتم إبادتها بالاحتياطيات القريبة والانساق الثانية التى أجادت التدريب على أمثال تلك المهام ، على امتداد السنوات الست التى انصرمت منذ انتهاء الجولة الثالثة .

وزيادة فى التأمين . . قامت السلطات الإسرائيلية بإخلاء المدينة من أهلها ، وحوَّلت بعض منازلهم إلى أوكار للأسلحة ومزاغل لإطلاق النيران ، كما أزالت بعضها لتمهد ميادين للمراقبة والنيران بهدف تحطيم أى هجوم مصرى لتحرير المدينة .

وكان العميد الركن فؤاد عزيز غالى يدرك صعوبة تحرير البلدة التى تعيَّن على قواته أن تقتحم فى طريقها مانعاً مائياً عريضاً ، وتصعد حائطا ترابيا شاهقاً ، وتدمّر حصوناً أقيمت على أحدث النظريات ، ثم تخوض حقولاً من الألغام المضادة للأفراد والشراك خداعية ، قبل أن تقتحم المدينة وتحررها من أدران الاحتلال البغيض ، ثم تدافع عنها ضد الهجمات المضادة الشرسة التى سوف يشنها العدو لا محالة لاستعادة البلدة مرة أخرى .

واستهل العميد الركن غالى دراسة المهمة بتحديد حجم وتسليح العدو فى مواجهة فرقته ، وتنظيم خططه الدفاعية وصولاً إلى الخلاصات التالية :

١- الأسلوب الأمثل لاجتياح حصون المدينة والنقط القوية على أجنابها ، والتى تشكل عقبة رئيسية تعترض طريق قواته المهاجمة .

٢- الخطة الأفضل لشل عمل الاحتياطيات الإسرائيلية القريبة ، التى سوف تهرع لنجدة تلك الحصون لمنعها من مد يد المساعدة لها ، أو الوصول إلى مرابض الدبابات المجهزة حول المدينة وداخلها وفوق الحائط الترابى ، لعرقلة عبور قواته وإيقاع أفدح الخسائر بها .

٣- إيقاع أقل قدر من الخسائر في القوات الإسرائيلية مع الحصول على ، أكبر قدر من الأسري ؛ للاستفادة بما يحملونه من معلومات فى إدارة المراحل التالية من المعركة الهجومية .

٤- سرعة اكتشاف الأخطاء التي تقع فيها القيادة الإسرائيلية أو قواتها ؛ لاستغلالها أولاً بأول بما يدفع وتيرة الهجوم ، ويحسم المعركة بأقل خسائر وأسرع وقت .

وكانت المعضلة الثانية أمام العميد الركن غالى هى انتخاب قوة الاقتحام لتحرير المدينة ، ووضع الخطة لتوقيت الهجوم وحجمه واتجاهه ، مع تحديد المساعدات التى تكفل التغُّلب على ما سوف يصادفه من مشكلات .

أمَّا المعضلة الثالثة . . فكانت تحديد أسلوب سيطرته على قواته المهاجمة ؛ خصوصاً عندما تتلاحم مع العدو فى القتال يداً بيد داخل الخنادق والحصون ، وهل تباشر قواته أسلوب الهجوم المباشر ، أم الحصار ، أم كليهما معاً ؟

وكان للمفاجأة القدر المعلى من الأهمية لنجاح العملية ، وحصر الخسائر البشرية . أمَّا توقيت الهجوم فقد تحدد له ثانى أيام المعركة ، الأحد ٧ أكتوبر ، عندما تكون أنظار العدو واهتماماته قد تحوَّلت تماماً إلى كبارى العبور ورؤوس الجسور الخمس على الضفة الشرقية للقناة .

وبعد أن اتخذ العميد الركن غالى قراره فيما سبق من معضلات ، قام بالآتى :

١- انتخاب أفضل القادة والقوات لتنفيذ المهمة ممن اشتهروا بالهمة والمعنويات العالية .

٢- شرح الخطة التفصيلية حتى أدنى المستويات ، وتدريب القوات عليها من خلال مشروعات واقعية لأكثر من مرّة .

٣- بث عقيدة القتال فى نفوس الأفراد ، وتذكيرهم بأن الجهاد هو أسمى مراتب العقيدة لإحراز النصر أو الشهادة ، وأنه المحك الأول لحقيقة ما يقر في قلب كل مواطن من حب الوطن واستعداده للبذل فى سبيله .

وضاعف من أثر العامل الإنسانى فى إحراز النصر يقين الجنود بعدالة القضية ، ومشروعية المهمة ، وحتمية تحرير الوطن من قبضة الغاصب الدخيل ، بينما لم يكن الجنود الإسرائيليون المحتلون للمدينة يجدون الحافز الحقيقى لبذل الأرواح فى سبيل الاحتفاظ بها ، أولاً لهدف المقنع الذى يستحق التضحية بالنفس فى سبيله .

لهذا حرصت خطة الهجوم على البلدة أن تترك لهم ثغرة ، يتخلصون خلالها من القتال طبقًا لتكتيك حدوة الحصان ، حتى يتمكنوا من الانسحاب شرقاً لينضموا إلى باقى قواتهم بالعمق التكتيكى ، ولهذا كلّف العميد الركن غالى جنوده بحصار أغلب النطاق الخارجى للمدينة ، مع ترك فجوة فى الإطار الشرقى للهرب ، خاصة وقد كانت أعداد كبيرة

من الوحدات الإسرائيلية المقاتلة وعناصرها الإدارية والفنية داخل المدينة بما يحسن معه عدم إحكام قفل طوق الحصار عليهم ، مما قد يطيل زمن المعركة .

وجاء النصر كاملاً وسريعاً ، إذ غادرت فلول الإسرائيليين البلدة قبل أن تغرب شمس اليوم الثانى لحرب رمضان - ٧ اكتوبر - فأرتفعت عليها أعلام مصر لتعلن عن بطولة الرجال الذين حرروا البلدة بفضل تفوقهم فى العامل الإنسانى على العدو .

ثانياً: ولماذا انهزم الإسرائيليون فى معركة السويس ؟

كعادته فى الجولات السابقة ، استغل العدو قرار إيقاف النيران الصادر من مجلس الأمن فى الساعة السابعة مساء ٢٢ اكتوبر ، لدفع المزيد من القوات والمعدات بغرض توسيع ثغرة الدفرزوار ، وسرعة الاستيلاء على إحدى مدن القناة للمقايضة بها فى أى مباحثات مقبلة .

ولم تكن تلك النوايا خافية على اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث الميدانى ، وهو المتمرس فى الحروب ضد إسرائيل ، فبادر بإتخاذ كثير من الإجراءات تحسباً لتطور العدوان المتوقع ، الذى رجّح بخبرته العريضة أنه سوف يتجه صوب السويس .

وقبل أن يتمكن من قطع طريق السويس القاهرة والمحاور الطولية الأخرى فى فجر يوم ٢٣ اكتوبر . . كان اللواء واصل قد دفع بسريتين من المشاة الميكانيكية يدعمهما عدد من الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات ، وسرية صاعقة لتشترك مع الكتيبة ١٨٣ دفاع إقليمى ، وقوات الدفاع الشعبى فى الدفاع عن السويس حتى أخر طلقة . كما حرص أيضاً على تخزين كمية كافية من الذخائر ومطالب الإعاشة فى أماكن مستترة داخل المدينة .

وقد كشف تطوّر القتال حول وداخل المدينة أن تلك القوات كانت تتحلى بمعنويات عالية ، وبتصميم أكيد على الذود عن مدينتهم ، وقد كانت تلك هى ميزتهم الحقيقية على العدو الأكثر عددًا وسلاحاً ، الذى راح يهاجمهم المرة تلو الأخرى فكان نصيبه الفشل والاندحار .

وبعد أن تولى المستشار العسكرى لمحافظة السويس مسؤولية تنظيم الدفاع عن المدينة أعاد تنظيم الدفاع عنها لأخر طلقة ، كما دفع مجموعات اقتناص دبابات وكمائن ومفارز للعمل خلف خطوط العدو ، على مخارج المدينة وداخل المناطق الزراعية المحيطة بها .

وبمبادرة شخصية من العميد الركن يوسف عفيفى قائد الفرقة ١٩ ، المشاة وأحد أبطال تلك الحرب التى كانت فرقته متمركزة فيها على الضفة الشرقية للقناة فى مواجهة السويس ، قام خلال ليلة ٢٢/ ٢٣ أكتوبر بدفع بعض مجموعات اقتناص الدبابات لتعزيز دفاعات السويس ، ثم أرسل ظهر يوم ٢٣ سرية صواريخ شمل مضادة للطائرات وأربعة قواذف RPG لدعم الدفاع المضاد للدبابات عنها ، إلى جانب نيران القواذف والمدافع الموجودة فى مرابضها على الضفة الشرقية .

وظل العدو يقصف المدينة وما حولها بتركيز شديد طيلة يوم ٢٣ أكتوبر ، وعندما اقتربت وحداته الأمامية منها لجس مدى مقاومتها . . قابلتها النيران الحامية عند منطقة حوض الدرس ، فتحول العدو نحو الشمال الغربى لاجتياح المدينة من ذلك الإتجاه .

وبادر مستشار المحافظة بتعديل الأوضاع لتأمين قفل المحاور الجديدة للهجوم الذى بدأ فى الساعة الحادية عشرة من ليلة ٢٣/ ٢٤ أكتوبر بتقدم دبابات العدو من السفوح الشمالية الشرقية لجبل عتاقة ، صوب ميناء الأدبية الواقعة جنوب السويس . كما حاصرت الميناء .

وتواصلت المعلومات مع أول ضوء ٢٤ أكتوبر عن زحف لواء مدرع على عدَّة محاور من طريق الجناين ، وطريق القناة ، وطريقة المعاهدة ، ومحور طريق القاهرة - السويس ، تحت حماية مظلة جوية ، وقصف جوى عنيف ، وتمهيد مدفعى ركَّز نيرانه على طريق السويس والمعاهدة .

ثم ظهرت دبابات العدو على مشارف السويس فى منتصف الساعة التاسعة صباحاً ، قادمة من اتجاه معسكر الشلوفة تحت ستار القصف الجوى والمدفعى ، فتصدَّت لها مجموعات اقتناص الدبابات المنتشرة فى تلك المنطقة ، وأبدت ثباتا وشجاعة تمكَّنت بفضلها من تدمير أربع دبابات معادية فتوقف الرتل الزاحف وحاول الالتفاف من جهة الغرب ففقد أثناء تلك المناورة خمس دبابات أخرى ارتد على أثرها للخلف ليعيد التخطيط ، فى نفس الوقت الذى بادرت فيه مجموعات اقتناص الدبابات بإعادة التجميع والتوزيع عند مداخل مدينة السويس نفسها .

وكرَّر العدو هجومه فى الساعة الحادية عشرة صباحاً ، مركزاً جهده الرئيسى فى اتجاه طريق القاهرة - السويس وشارع الجيش ، بينما قامت قوة أخرى تقدر بكتيبة دبابات بالهجوم من اتجاه طريق القناة ، فأعتلت الساتر الترابى على الضفة الغربية قرب حوض

الدرس ، حيث تعرَّضت للخسائر الجسيمة من مجموعات اقتناص الدبابات المصرية ، التى أجبرتها على التوقّف عند مصيف الملاحات الواقع على مسافة ٧ كيلو مترات شمال بور توفيق .

ومع الظهر تمكَّنت عناصر مدرعة من التسلل داخل السويس على امتداد شارع الجيش الذى يخترق المدينة من الغرب للشرق فدار قتال متلاحم معها ، كما أمكن تدمير قوة أخرى حاولت الاستيلاء على قسم شرطة الأربعين . وبفضل عنف المقاومة واستبسال المقاتلين مع تلاصق مبانى المدينة ، وارتفاع المعنويات هبطت معنويات الإسرائيليين حتى اضطر قائدهم للتدخل ، ومخاطبة جنوده لاسلكيا لطمأنتهم وشرح طريق النجاة الذى يستطيعون أن يسلكوه للخروج من مأزقهم بالمدينة .

وعلى محور القاهرة - السويس حاول رتل آخر الهجوم عصر يوم ٢٤ اكتوبر ، مركزاً جهده غرب جسر السكة الحديد ؛ فتصدت له مجموعات اقتناص الدبابات بالتعاون مع عناصر المشاة والدفاع الإقليمى والشعبى ودمرت له دبابتين وأربع عشرة عربة مدرعة وبعض اللوارى المحملّة بالذخيرة ، كما أجبرت الباقى على الارتداد غرباً بعد سقوط عدد من ضباطه وجنوده قتلى .

والواقع أن يوم ٢٤ أكتوبر قد حفل بأحداث جسام وبطولات عظام وصمود جدير بالفخر حتى صار اليوم القومى لمدينة السويس الباسلة . ويحضرنى هنا ما قاله شلومو آراد مصوِّر الجيش الإسرائيلى فى كتابه المعنون « عيد الغفران » ما نصّه : « بدأ المهرجان فجأة ، وراحوا يطلقون علينا النيران من كل جانب وبيت ونافذة وفتحة .... ولم يعد منزل واحد لا تخرج منه النيران ، التى راحت تنهال علينا بغزارة من كل أنواع الأسلحة الآلية والقنابل اليدوية ، بينما جرحانا يرقدون على قارعة الطريق وأنينهم يقطِّع نياط القلب ... أما المظليون الذين حاولوا بخبرتهم التقدم فقد احتجزتهم النيران بجوارهم ... وراحت أجهزة اللاسلكى تردد نفس العبارة الرتيبة دون توقف ... النجدة ... النجدة ... لم نعد نحتمل ... أرسلوا التعزيزات فوراً » .

وفى فجر ٢٥ أكتوبر لجأ العدو إلى قطع المياه عن المدينة بردم ترعة السويس ليجبر الأهالى على الاستسلام ، إلا أن المآذن راحت تردد نداء الله أكبر تعبيراً عن الاصرار على مداومة الصمود ، ثم زاد نشاط الدفاع مع أول أيام عيد الفطر الذى وافق ٢٦ اكتوبر فأوقع

المزيد من الخسائر فى أفراد العدو ومعداته ، بينما قامت المدفعية من مرابضها على الضفة الشرقية للقناة بقصف مواقع العدو فى المثلث والشلوفة ومنطقة الاستاد جنوب المدينة .

وتحركت مجموعة فدائية من المدينة لتباغت العدو المتمركز فى منطقة مضيق الملاّحات وتحطم له ثلاث دبابات وعربة نصف جنزير بأطقمها ، كما أصابت بعض أفراده فلم يعاود الهجوم من هذا الاتجاه مرّة أخرى .

وبروح الانتقام راح العدو يكثّف قصفاته الجوية على المدينة الصامدة ، بينما دفع بقوة أخرى للهجوم عليها من الشرق قابلتها نيران المدافعين بتصويب محكم وأجبرتها على العودة من حيث أتت . وكانت تلك الهجمة هى الأخيرة فيما حاوله العدو جاهداً لاحتلال السويس ، وما أبدته المدينة من صمود واستبسال تحطمت على صخرته الهجمة تحت ظروف معاكسة كانت تقف إلى جانب العدو إلاّ أن روح القتال وهمة الرجال وارتفاع المعنويات كانت أقوى من جحافل العدو ونيرانه الجوية والبرية .

والواقع أن نصر السويس يعود فضلة بالدرجة الأولى إلى العامل الإنسانى ، الذى ملأ وجدان المدافعين عن المدينة استبسالاً وإصراراً على الذود عنها تحت أشق الظروف ، وتصميماً على ألاّ يدنسها العدو بالاحتلال مهما تطلّب ذلك من فداء ودماء .